أخبار الخليج

العدد (17669) - السنة الحادية والخمسون - السبت 25 صفر 1448هـ - 8 أغسطس 2026م

العلاقات البحرينية المصرية نموذج لقوة التضامن العربي

بقلم:
د. ياسر أحمد جمعة ○

كُلُّ زيارة متبادلة بَيْن القاهرة والْمنامة تُثير سُؤالا لَا يَبدُو للْوهْلة الْأولى مُهمًّا، لَكنَّه في الحقيقة يَحمل مفْتاحًا لفَهم السِّياسَة العربيَّة الْيَوم. لماذَا لَم تعد هَذه الزِّيارات تُصَاحب بِخطابات مُطَولَة كمَا كَانَت في الماضي؟ الْجَواب لَا يكْفيه القوْل إنَّ «الزَّمن تَغيَّر»، بل يَستدْعي تفْسيرًا أعمَق يَكشف كَيْف أعادتْ الدِّبْلوماسيَّة الْبَحْرينيَّة الْمصْريَّة صياغة أدواتهَا اللُّغويَّة بذكاء لتدير عَلاقَة تاريخيَّة عريقة بكَفاءة أَكبَر وكلمَات أقلّ. فمَا يَبدُو صمْتًا على السَّطْح هُو في الْجَوهر إعادة تَشْكيل كَامل لبَنيَّة التَّواصل السِّياسيّ نَفْسهَا، لَا مُجرَّد تَبديل في الشَّكْل، بل في المضْمون السِّياسيّ نَفسه.

في الأدب اللُّغَويّ السِّياسيّ، يُفرَّق بَيْن نَوْعَيْن من الأفْعال الكلاميَّة. الخطَاب التَّأسيسيُّ، الَّذي يُنْتج واقعًا جديدًا ويراد لَه البقَاء كمرجع تاريخيٍّ، والتَّصْريح الوظيفيّ، الَّذي يَخدم لَحْظته بدقَّة وكفاءة. خطَاب 2016 المشْترك بَيْن فَخامَة الرَّئيس عَبْدالفتَّاح السِّيسيّ وَجَلالَة الْمَلك حمد بْن عيسى آل خَليفة، حفظهمَا اللَّه ورعاهما، بمَا تضمنَه من طَرْح صريح لمشْروع «الْقُوة العربيَّة المشْتركة»، كَان خطَابًا تأسيسيًّا أرَاد لَه الطَّرفان أن يستشْهد به لَاحقا. أمَّا تَصريح 5 أغسْطس 2026، الَّذي نَقله المتَحدّث الرَّسْمي باسْم الرِّئاسة المصْريَّة بمناسبَة اسْتقْبال فَخامَة الرَّئيس عَبْدالفتَّاح السِّيسيّ لجلالة الْمَلك حمد بْن عيسى آل خَليفة، حفظهمَا اللَّه ورعاهما، في مَطَار العلمَيْن الدَّوْلي خلَال زيارَته الرَّسْميَّة، فَهُو تَصريح وَظيفيّ مُتطور يَخدم غرض التَّغْطية الإخْباريَّة اللَّحْظيَّة بكفَاءة أعلَى، وَيعكس نُضْجًا في إدَارة العلاقة لَم تَعُد بحَاجة إلى إعَادة تَفسير أسَاسها في كُلّ لقاء. هَذَا التَّحَوُّل من الخطَاب الشَّامل إلى التَّصْريح الدَّقيق يَعكس تطوُّرًا طَبيعيا في فلسفَة الدِّبْلوماسيَّة البَحْرينيَّة المصْريَّة المعَاصرة، عبر خطَاب يبرز تميز علاقَات دوْلتَيْن ترْبطهمَا مُؤسَّسَات رَاسخة تَحْتاج فقَط إلى «تأكيد» اسْتمْراريَّة ثَابتة بالْفعْل.

اللَّافتُ في هَذه الظَّاهرة أنَّ النَّص المكْتوب الكَامل لَم يَغب أبَدا، بل اتَّخذ شَكْلًا أكثَر تكْثيفًا ودلالة، تمثَّل في بَرقيَة جلالة الْمَلك حمد بْن عيسى آل خَليفة، حَفظَه اللَّه وَرَعاه، في أُكتوبَر 2025، أكد فيها معنى «اسْتدامة السَّلَام والاسْتقْرار في الوطَن العَربيّ» وأهميَة دور «مصْر العروبة»، هو نصّ مَكتُوب بالْكامل يُحمّل عُمْقًا بَلاغيا حقيقيًّا، لَكنَّه يَصدُر في سيَاق مُؤسسي مُكثَّف بدلا من سيَاق عَلني مُطول.

هَذَا يَعني أنَّ اللغَة الرَّسْميَّة البَحْرينيَّة المصْريَّة طَورَت لغة سياسية ذكيَّة لَهَا. فهنَاك التَّصْريحات اليوْميَّة القصيرة تدير «العلاقات الجارية» بمرونة عاليَة، بيْنمَا البرْقيَّات في المناسبات تَحفظ «الذَّاكرة التَّاريخيَّة» و«الشَّرْعيَّة الرَّمْزيَّة» بكلّ ثقْلهَا.

بعبَارة أُخْرى، إن الأسْلوب اللغوي المسْتخدم بعبارات دقيقة محكمة للتعبير عن المواقف، يعكس رسَالة سياسيَّة نَاضجة مُفَادهَا أنَّ الشَّرْعيَّة اليوْم تَبنَّى بتوْثيق هَادئ ومؤسَّسيٍّ بَيْن طرفيْن تجمّعهمَا ثقة مُتبادلة لَا تَحْتاج إلى إثْبَات مُتكرر أَمَام أحد.

هُنَاك تَفسير آخر يَتصل بتحوُّل بيئة الخطَاب الإعْلاميّ نفْسه. في عَصْر مَا قَبْل الفضائيَّات، كان الخطَاب الطويل أدَاة ضَرورية لأنَّ وَسَائل الإعْلام قَليلَة والْفرص محْدودة، فَكَان القائد يَستثْمر كلّ ظهُور عَلني بأقْصى طَاقَة بَلاغيَة مُمكنَة. الْيَوم، مع تَعدُّد القنوات وَوفْرَة الأخْبار، أصبَح «الاقْتصاد اللُّغَويُّ» هُو الأدَاة الأكْثر فعَّاليَّة، فَجُملَة مُكثفَة مثل «تَعزيز التَّنْمية المسْتدامة» تَنتَشر عَبْر عَشْرات المواقع الإخْباريَّة في دَقَائق، وَتَعاد صياغتهَا بلَا حَاجَة لأصل خطَابي طويل. بهَذَا المعْنى، لَم تَعُد الدَّوْلتَان بحاجة إلَى أن «تسهبا في الايضاح وَالبيَان، بل تحْتاجان فقط إلى ابتكار مُصطَلح مَوثُوق ليقوم بعَمل الخطَاب كُلّه بكفاءة أكبَر. هَذَا مَا يُفسّر أنَّ «التَّنْمية المسْتدامة» أصبَحت أشبَه بكود لُغَوي مَضغُوط، يَختَصر رسالة سياسيَّة عميقة في كلمتَيْن بدلًا من عَشْرين سَطْرا.

هُنَاك بُعْد أكثَر وَاقعية يَستَحق التَّوَقُّف عنْده، فالصِّيَاغة العامَّة في التَّصْريحات الرَّسْميَّة بكلمات ذَات دلالات مؤثرة هي أدَاة دبْلوماسيَّة مُتَقدمَة تَمنَح الطَّرفيْن مسَاحة للتَّكَيُّف مع مُتغيِّرات إقْليميَّة سَريعَة.. لهذا فَإن التَّصْريح الْمُوجز الذي تمت صياغته بكلمات محددة، كالْإشارة إلى «مُسْتجدَّات القضَايَا الإقْليميَّة»، هُو صيغة مَرنَة تَعكس نُضْجًا في إدارة التَّوْقيت السِّياسيّ، إذ تَحتَفظ القيَادتان بحرِّيَّة التَّكَيُّف مع مُسْتجدَّات المنْطقة من دُون تَقييد نفْسيْهمَا بتفاصيل قد تتجاوزهَا الْأَحْداث بسرْعَة. هَذه المرونة اللُّغويَّة تَخدم اسْتقْرَار العلاقة على المدى الطويل أكثَر من التَّفْصيل الدقيق الذي قد يُصْبح عِبْئًا إذَا تَغيرَت الظُّروف.

الخلاصة هُنَا تَتَجاوَز حَالَة القاهرة والْمنامة إلى نمط عَربي عامٍّ يَستَحق التَّقْدير، هُو أنَّ العَلاقات الثُّنائيَّة الكُبرى لَم تَعُد تُقَاس بحَجم الخطَاب الْمُعلن فقطْ، بل بكثَافة الأثر الملْموس غَيْر الْمُعلن بالتَّفْصيل. المشْروعات الصِّناعيَّة بقيمة مئَات مَلايين الدُّولارات، والْمذكِّرات الفَنِّيَّة بَيْن الوزارات، والتَّنْسيق اللَّحْظي في خضم الأزمات، كُلهَا تَصنَع «نَصًّا» أكبَر من أيِّ خطَاب مَكتُوب، يَعكس عَلاقَة عَميقَة تَفُوق الحاجة إلى الإعْلان المسْتمرّ. وَرُبمَا هذَا هُو التَّطَوُّر الأهمُّ في الخطَاب السِّياسيِّ المصري البَحريني المعاصر، باتجاه ثَقَافَة «النُّصوص المتكاملة» الَّتي تُبنَى عَبْر سَنَوات من البيانات الدَّقيقة، التي يمكن أن يكتشف مَعْنَاها الكامل لمن يَقْرأهَا معًا كنَسيج وَاحد مُتَّصل، لَا لمن يَبحَث عن خطَاب وَاحد يُلخّص كُلّ شَيْء.

في النِّهاية، مَا بَيْن خطَاب لَم يُكتَب وَبرقية لَم تَنسَ، وَتصريح مُوجَز يَحمل مضامين مُذكرَات وملفَّات لَا تُروَى بالْكامل، تَتَكشَّف الحقيقة الأعْمق لَهَذه العلاقة المتميزة بين بلدين يعليان من قيمة وراية العروبة.

إن القاهرة والْمنامة لَا تحْتاجان اليوْم إلى إثبَات صدْق الْأخوة، لأنَّ التَّاريخ نَفسَه يَكتُب لَهمَا ذَلك مُنْذ عُقود، وَلأن المشْروعات المشْتركة والْمواقف المتضامنة في كُلّ أزمَة إقْليميَّة تَتَحدَّث بلغة أَوضَح من أيِّ خطَاب. فحين تَكفي كلمتَان مُكثَّفتَان لحَمل رسَالة كَانَت تَحْتاج سابقًا إلى صفحَات، فَهذَا يَعني أنَّ العلاقَات المصْريَّة البَحْرينيَّة بَلغت من النُّضْج حدًّا يَجعَل الصَّمْتُ نَفسه دليل ثقَة، ويؤكد خصوصية نَمُوذَج العلاقة بَين القاهرة والْمنامة التي تزداد رسوخا مع كل لقاء قمة بين قيادتي البلدين.

○ أُستَاذ اللُّغويَّات والتَّرْجمة - زميل أكاديميَّة التَّعْليم العالي البريطانيَّة.

عالم يتغير

مسرح الصواري.. وللأوطان روح وجسد!

فوزية رشيد

○ كما للبشر جسد وروح فإن للأوطان روح وجسد! جسد الأوطان يتمثل في جغرافيتها وبيئتها وسمائها وأرضها وبحرها، مثلما يتمثل في مؤسساتها ووزاراتها وإداراتها، أي كل ما يمثل الدولة من بنية رسمية وبنية تحتية! فماذا عن الروح؟! روح الأوطان نجدها في تاريخها وحضارتها وتراثها وفي ثقافاتها وفنونها وفي الفكر والرواية والشعر والموسيقى والمسرح والعاملين في كل تلك المجالات، وكل ما يعبر عن جوهرها وشخصيتها وخصوصيتها كأوطان! لذلك فإن الوطن الذي يحتفي بتميز مفكرية ومثقفيه وفنانيه إنما يحتفي بنفسه وبجوهره الأصيل وبروحه المتميزة!

هناك من يكبر في الوطن ويحتل المسؤولية في تمثيل الدولة ومؤسساتها، وهناك من يكبر الوطن بهم أكثر من غيرهم وبصمت وإن بجهود ذاتية، وهؤلاء هم ممثلو الروح في الوطن فناً وثقافة وفكراً!

○ كان لا بد من هذه المقدمة ونحن نحتفي بالمنجز الإبداعي الذي حققه «مسرح الصواري» في مهرجان جرش للمونودراما الأخير، حيث نال العرض المسرحي «المدعو صدفة» أربع جوائز (جائزة أفضل عرض متكامل، وجائزة لجنة التحكيم الخاصة التي فاز بها الفنان كامل البوسعيدي، وجائزة أفضل إخراج التي حظي بها المخرج إبراهيم المنسي، وجائزة أفضل سينوغرافيا التي حصل عليها الفنان عبدالله البكري)، أما يوسف الحمدان فله قصة أخرى مع الجوائز! وهو الذي فاز في المهرجان ذاته على جائزة أفضل تأليف مسرحي عن نص مسرحية «السيد خشبة»، وكان يستحق ذات الجائزة مرة أخرى عن نصه المسرحي «المدعو صدفة» الذي فاز بالجوائز الأربع السابقة.

○ و د. يوسف الحمدان الذي يعشق المسرح والفنون عامة عشقه للحياة! وهو الذي واصل منذ أن تعمقت معرفتي به في الثمانينيات درب العشق المسرحي كتابة ونقداً وتأليفاً ورعاية للممثلين والفنانين، حتى تحول مسرح الصواري معه ومع العاملين والفنانين فيه إلى علامة مضيئة في المسرح البحريني، الذي يطل فتطل معه الإنجازات المسرحية النوعية والجوائز وإثبات الذات الإبداعية في أجواء محلية وخليجية وعربية بل ودولية مشحونة بالمنافسة! ما يجعل من منجزات التأليف والتمثيل والإخراج في مسرح الصواري ذات تميز خاص ونكهة فنية خاصة معجونة بروح التحدي الفني لدى الفنان البحريني الذي يعمل بجهد كبير رغم الظروف القاسية! ومن المسرح الخليجي إلى المشاركة البحرينية في الدول العربية والمهرجانات العربية على رأسها مهرجان القاهرة المسرحي، إلى مشاركة يوسف الحمدان في «زيوريخ» ممثلاً للنقد في المحاور الدولية، إلى حصوله في بطرسبرج في روسيا على شهادة الدبلوما الفخرية عن نص (هدوء تام) وجائزة الأداء الجماعي، يواصل «الحمدان» ومسرح الصواري درب المنافسة المسرحية منذ التسعينيات! ويحصد كما في «مهرجان جرش» الأخير الإشادات باعتبار «المدعو صدفة» أبرز أعمال الدورة هذا العام في جرش! مثلما يحظى بإعجاب وإشادة لجنة التحكيم والجمهور، لتطل مملكة البحرين، وهي في أبهى صورها الفنية، وإنجازها الثقافي والمسرحي، ولتتجلى معها الروح البحرينية ذات المخزون الحضاري العميق، والحضور الثقافي الرائد والتجسيد الفني الذي يحتاج منا جميعاً إلى كل حفاوة وإشادة ورعاية.

○ الفن والثقافة في البحرين ليسا فقط ممثلي الروح البحرينية، بل هما سمة الشخصية البحرينية، وما يتحقق فيهما وبهما، يؤكدان أنهما أهم دعائم رسم الصورة البحرينية في العالم كله! لأن المباني والمؤسسات والأمكنة الحديثة موجودة في كل الدول، ولكن ما يميز دولة عن أخرى هو تميزها وخصوصيتها وحضورها الثقافي والفكري والفني، وامتدادها التاريخي والحضاري وقيمها الإنسانية والأخلاقية المتجسدة في تراثها وثقافتها، ولذلك فإن كل إنجاز ثقافي وفني يستحق تقدير الجهات المعنية له، لدعم الاستمرارية في مثل هذا الإنجاز! وقد تشرف مسرح الصواري بإهداء جوائزه الخمسة التي حصل عليها في «مهرجان جرش» إلى مقام جلالة الملك «حمد بن عيسى آل خليفة» الذي يدرك جيداً قيمة الفن والثقافة في ترسيخ صورة البحرين الحضارية وقوتها الناعمة على مستوى المنطقة والعالم.

ولأن مسرح الصواري أثبت حضوره المحلي والخليجي والعربي بل والدولي، فإنه يستحق أن يحظى بـ(مقر دائم) ليواصل عطاءه الفني بعيداً عن الشقة الصغيرة التي ينحصر فيها بأعماله وفعالياته وتدريباته الأولية!

○ إن صورة البحرين الحضارية المستمدة من مثقفيها وفنانيها وأدبائها هي المعبرة عن روح هذه الأرض العابرة لحدود الأزمان والعصور، برسوخ ذاكرتها الوطنية وهويتها التاريخية والمعاصرة، ذات الخلطة الخاصة أو السحرية التي يعرفها عنها الجميع! وليس هناك ما هو أهم من التعريف الثقافي والفني عن تلك الروح البحرينية، ومنه أهمية استمرار دعم الدولة للثقافة والفنون والإبداع والعاملين في هذا المجال، لأنهم السد المنيع للدفاع عن هوية البحرين وخصوصية تاريخها وعمقها الحضاري ولأنهم ممثلو روح البحرين!

في الذكرى المئوية لميلاد حكيم الثورة الفلسطينية جورج حبش

بقلم: واصل الخطيب ○

في الذكرى المئوية لميلاد جورج حبش، الذي يقبع في ضمير كل إنسان فلسطيني حر ومناضل حقيقي وشريف، لا يقف التاريخ أمام مجرد قائد سياسي فلسطيني، بل أمام تجربة إنسانية وفكرية تشكّلت عند تقاطع النكبة والمنفى والثورة والفلسفة. لقد كان «حكيم الثورة» طبيبًا حمل سماعة الطب بيد، وحمل سؤال الحرية باليد الأخرى، قبل أن يختار أن يجعل من حياته مشروعًا سياسيًا ارتبط بقضية فلسطين وبفكرة التحرر العربي. وسواء اتفق المرء مع أطروحاته أم اختلف معها، فإن أثره في التاريخ الفلسطيني والعربي يظل موضوعًا مهمًا للدراسة.

ولد جورج حبش في مدينة اللد سنة 1926، وعاش مأساة النكبة عام 1948 حين أُجبر مع عائلته وآلاف الفلسطينيين على مغادرة مدينتهم. وقد تركت تجربة الاقتلاع أثرًا حاسمًا في وعيه السياسي؛ فالنكبة لم تكن بالنسبة إليه مجرد خسارة للأرض، بل انهيارًا لمنظومة أخلاقية وإنسانية، ومن هنا أصبح سؤال التحرير هو السؤال المركزي في حياته.

كان حبش يرى أن المنفى ليس مكانًا جغرافيًا فحسب، بل حالة وجودية يعيشها الفلسطيني أينما حل. فاللاجئ يحمل وطنه في ذاكرته، ويعيش بين حاضر لا يملكه ومستقبل يسعى إلى استعادته. ولهذا لم يكن اللجوء عنده نهاية التاريخ، بل بداية مشروع مقاومة طويل.

قاد تأسيس حركة القوميين العرب في خمسينيات القرن الماضي، ثم شارك بعد هزيمة حزيران-يونيو 1967 في تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، معتبرًا أن الهزيمة كشفت الحاجة إلى مراجعة شاملة للفكر والتنظيم وأساليب النضال. وقد قدّم الجبهة بوصفها تنظيمًا يجمع بين البعد الوطني الفلسطيني والرؤية القومية العربية والتوجه اليساري.

على المستوى الفكري، انتقل حبش تدريجيًا إلى تبني الماركسية اللينينية، لكنه أكد في أكثر من مناسبة أنه لم يرَ تناقضًا بين القومية العربية والاشتراكية. ومن أشهر عباراته في هذا السياق: «إنني لا أجد تناقضًا بين كوني عربيًا يؤمن بالأمة العربية وبين أن أكون اشتراكيًا حقيقيًا». كما أوضح أن تعمقه في قراءة ماركس وإنجلز ولينين جاء خلال فترة اعتقاله في سوريا، حيث أمضى أشهرًا طويلة في المطالعة والدراسة.

ولم يتعامل مع الماركسية باعتبارها عقيدة جامدة، بل منهجا لتحليل الواقع، وهو ما لخّصه بعبارة أصبحت من أشهر أقواله: «علينا إلباس النظرية كوفية وعقالًا»، وهي عبارة تشير إلى ضرورة تكييف الأفكار مع الواقع العربي والفلسطيني بدل استنساخ التجارب الأجنبية.

أما القومية العربية، فلم تكن عنده مجرد هوية ثقافية، بل إطارًا استراتيجيًا لتحرير فلسطين. وكان يعتبر أن تجزئة العالم العربي أسهمت في إضعاف مشروع التحرر، وأن فلسطين لا يمكن فصلها عن محيطها العربي. وفي الوقت نفسه شدد على أن الفلسطينيين أنفسهم يجب أن يكونوا القوة الأساسية في مشروع التحرير، عبر تنظيم طويل النفس يستند إلى حرب التحرير الشعبية وتجارب حركات التحرر العالمية.

عرف حبش أيضًا حياة المطاردة والاعتقال والعمل السري. فقد تعرض للملاحقة في سوريا، واعتُقل فيها خلال ستينيات القرن العشرين، وقضى فترة من السجن قبل أن يغادرها سرًا إلى لبنان، وهي تجربة قال إنها منحته وقتًا واسعًا للقراءة والتأمل وصياغة مراجعاته الفكرية.

ومن الأقوال المنسوبة إليه التي تعكس رؤيته الأخلاقية والسياسية: «الثورة ليست بندقية فحسب، بل وعيا وتنظيما»، و«الإنسان أغلى ما نملك»، و«نختلف في الرأي، لكننا لا نختلف على فلسطين».

وقد اشتهر أيضًا بتأكيده انسجام مكوناته الفكرية والإنسانية بقوله: «أنا في حال انسجام مع قوميتي العربية، ومسيحيتي، وثقافتي الإسلامية، وماركسيتي التقدمية».

فلسفيًا، يمكن قراءة تجربة جورج حبش بوصفها محاولة للإجابة عن سؤال قديم: هل يصنع الإنسان التاريخ أم يصنعه التاريخ؟ لقد صنعته النكبة لاجئًا، لكنه حاول أن يصنع من اللجوء مشروعًا سياسيًا. وصنع منه المنفى قائدًا عابرًا للحدود، لكنه بقي يحمل ذاكرة مدينة اللد باعتبارها نقطة البداية والنهاية.

لم تكن كاريزما جورج حبش قائمة على البلاغة الخطابية وحدها، ولا على الحضور التنظيمي فحسب، وإنما على نموذج أخلاقي في القيادة. فقد ارتبط لقب «الحكيم» في الوعي الفلسطيني والعربي بشخصية جمعت بين الطبيب الذي عالج أجساد الناس، والسياسي الذي حاول أن يعالج ما رآه جراحًا تاريخية أصابت شعبه وأمته. ولذلك لم يكن اللقب مجرد إشارة إلى مهنته الأولى، بل إلى صورة قائد عُرف لدى كثيرين بالهدوء والانضباط والصرامة مع النفس قبل الآخرين.

ويجمع كثير ممن عرفوه، سواء من رفاقه أو حتى من بعض خصومه السياسيين، على أنه كان زاهدًا في مظاهر السلطة والامتيازات الشخصية، وأن حياته اتسمت بالبساطة والتقشف. فقد ظل يعيش حياة متواضعة، ولم يُعرف عنه السعي إلى الثروة أو النفوذ الشخصي، بل كان يرى أن قيمة القائد تُقاس بمدى انسجامه مع المبادئ التي يدعو إليها. ولهذا اكتسب مصداقية خاصة داخل الحركة الوطنية الفلسطينية، إذ كان كثيرًا ما يطالب نفسه بما يطالب به رفاقه.

وكان الصدق، في نظر حبش، شرطًا من شروط الفعل الثوري. لذلك لم يكن يميل إلى إطلاق الوعود التي يعتقد أنها غير قابلة للتحقق، وكان يحذر من تحويل الخطاب السياسي إلى أداة للتعبئة العاطفية المجردة. وقد انعكس ذلك في لغته التي اتسمت بالوضوح والصراحة، حتى عندما كانت مواقفه تسبب له عزلة سياسية أو خلافًا مع حلفائه.

ومن هنا، يمكن القول إن كاريزما الحكيم لم تكن كاريزما الزعيم الشعبوي، بل كاريزما المفكر المناضل؛ إذ استمد حضوره من اتساقه بين الفكر والسلوك، وبين الكلمة والممارسة، وبين الالتزام الشخصي والانضباط التنظيمي. لقد كان يؤمن بأن الثورة لا تستطيع أن تنتصر إذا فقدت نزاهتها الأخلاقية، وأن التنظيم الذي يتخلى عن النقد الذاتي يبدأ طريقه نحو التراجع.

ورغم أن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين اتسمت بانضباطها التنظيمي، فإن حبش كان يرى أن وحدة التنظيم لا تتحقق بإلغاء الاختلاف، بل بإدارته ضمن أطر مؤسساتية. وقد شهدت الجبهة عبر تاريخها نقاشات داخلية حول الاستراتيجية والعلاقات العربية والدولية، وكان يؤكد أهمية الحوار الداخلي والمراجعة الدائمة، وإن ظل القرار النهائي يصدر عن المؤسسات القيادية.

وكان يعتبر أن الديمقراطية الداخلية ليست ترفًا تنظيميًا، بل وسيلة لتجديد الفكر وتفادي الجمود. لذلك شجع النقد والنقد الذاتي، وهي مفاهيم استلهمها من التراث الماركسي ومن تجارب حركات التحرر، مع تأكيده أن الاختلاف لا ينبغي أن يتحول إلى انقسام يضعف المشروع الوطني.

شكّلت العلاقة بين جورج حبش وياسر عرفات إحدى أكثر العلاقات تعقيدًا في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية. فقد جمع الرجلين هدفا وطنيا واحدا، هو إنهاء الاحتلال وتحقيق الحقوق الفلسطينية، لكنهما اختلفا في وسائل الوصول إلى ذلك الهدف وفي تقدير موازين القوى.

كانت العلاقة بينهما تتراوح بين التعاون والخلاف؛ ففي محطات كثيرة عملا معًا داخل منظمة التحرير الفلسطينية، ودافعا عن استقلال القرار الوطني الفلسطيني، وفي محطات أخرى احتدم الخلاف حول الخيارات السياسية والعسكرية، ولا سيما بعد تبني قيادة المنظمة مسار المفاوضات مع إسرائيل.

ورغم قسوة النقد المتبادل أحيانًا، حافظ حبش على احترامه الشخصي لياسر عرفات، كما ظل يعتبر أن الحفاظ على منظمة التحرير الفلسطينية إطارًا وطنيًا جامعًا ضرورة استراتيجية. ولهذا رفض الانسحاب منها بصورة نهائية، مفضّلًا البقاء داخلها للدفاع عن رؤيته ومحاولة التأثير في قراراتها.

أما علاقته ببقية الفصائل الفلسطينية، فكانت تقوم على فكرة أن التعددية السياسية ظاهرة طبيعية في حركة التحرر، شرط ألا تتحول إلى صراع على النفوذ يطغى على الهدف الوطني المشترك. ولذلك دعا مرارًا إلى بناء قيادة وطنية موحدة قادرة على استيعاب الاختلافات الفكرية والتنظيمية.

كان جورج حبش من أبرز المعارضين لاتفاق أوسلو، إذ رأى أن الاعتراف المتبادل بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، في ظل اختلال موازين القوى، لن يؤدي إلى تحقيق الحقوق الوطنية الفلسطينية كما كان يأمل مؤيدو الاتفاق. واعتبر أن أي تسوية ينبغي أن تقوم على إنهاء الاحتلال وضمان حق تقرير المصير، وأن القضايا الجوهرية، مثل القدس واللاجئين، لا يمكن تجاوزها أو تأجيلها بصورة تُفرغ المشروع الوطني من مضمونه.

وفي الوقت نفسه، لم يكن رفضه للتسوية نابعًا من رفض مبدئي لفكرة الحلول السياسية، بل من قناعته بأن المفاوضات لا تكون مجدية إلا إذا استندت إلى عناصر قوة سياسية وشعبية تجعل الطرف الفلسطيني قادرًا على التفاوض من موقع أكثر توازنًا.

نظر حبش إلى الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام 1987 بوصفها واحدة من أهم المحطات في التاريخ الفلسطيني المعاصر. فقد رأى فيها انتقالًا من مركزية العمل الفدائي الخارجي إلى مقاومة شعبية واسعة داخل الأرض المحتلة، شاركت فيها مختلف فئات المجتمع الفلسطيني، من العمال والطلاب والنساء إلى النقابات واللجان الشعبية.

وهكذا، فإن قراءة الحكيم بعد مائة عام ليست مجرد استعادة لسيرة قائد فلسطيني، وإنما تأملا في نموذج من القيادة رأى أن الكلمة مسؤولية، وأن الانتماء فعل يومي، وأن النقد جزء من الوفاء، وأن القضية الوطنية لا يحفظها السلاح وحده، بل يحفظها أيضًا الضمير، والحوار، والنزاهة، والقدرة الدائمة على مراجعة الذات.

○ كاتب وإعلامي فلسطيني.

الحقائق العلمية بين التفكير الناقد والتواضع المعرفي

بقلم:
فاطمة الحجري ○

للوهلة الأولى، قد يبدو أن قراراتنا اليومية تُتخذ بناءً على الحقائق والأدلة والمنطق، غير أن الواقع أكثر تعقيدًا؛ فخلف كل موقف أو قرار أو رأي تستتر عوامل خفية تتجاوز البراهين والأرقام والإثباتات العلمية، أبرزها الهوى والهوية.

ومن المهم هنا التمييز بين الهوى بوصفه ميلًا داخليًا يوجّه اختياراتنا، والهوية بوصفها الإطار الذي يمنحنا الانتماء والمعنى؛ وحين يتداخل الاثنان، يصبح الحكم على الوقائع أقل ارتباطًا بالدليل، وأكثر التصاقًا بما نريد تصديقه أو الدفاع عنه.

ففي عالم يغرق في تدفق المعلومات، لا نعيش بوصفنا كائنات عقلانية تستند إلى الوقائع كما هي خلال بحثنا عن الحقيقة، من دون أن نسقط عليها أبعادنا الاجتماعية والعاطفية، وانتماءاتنا الدينية والسياسية والثقافية، بل حتى الرياضية. ولذلك، كثيرًا ما تصبح الهوية التي ننتمي إليها عدسةً أو نافذةً نرى من خلالها العالم، فنقبل ما ينسجم مع تلك الأبعاد، ونرفض ما يناقضها، من دون أن نبذل جهدًا كافيًا لتدعيم ما نراه بأدلة علمية قبل أن نحكم، ونشكّل آراءنا، ونتخذ مواقفنا.

تكشف دراسات في علم النفس المعرفي أن العقل البشري لا يعمل دائمًا كقاضٍ محايد، بقدر ما يهمّ بارتداء جلباب المحامي ليدافع عن قناعاته السابقة، وهو ما يُعرف بـ«التحيز التأكيدي»؛ إذ يميل الإنسان إلى البحث عن المعلومات التي تؤكد معتقداته، ويتجاهل، أو يقلل في المقابل من شأن الأدلة المخالفة، وعندها لا يكون الهدف هو الوصول إلى الحقيقة، بقدر ما يكون حماية الصورة التي كوّنها عن نفسه، وعن جماعته وعن العالم حوله.

ولعل أبرز الأمثلة على ذلك تظهر في النقاشات المتعلقة بالوضع السياسي، أو ارتفاع تكاليف المعيشة والتضخم، أو توطين الوظائف، أو الحديث عن مهددات الاستدامة، وندرة المياه، وغيرها من الأمثلة، تشير بوضوح إلى أننا لا نتعامل مع الوقائع بوصفها معطيات محايدة، بل نفسرها من خلال منظومة من الانتماءات والقيم والمشاعر. والحصيلة أن آراءنا تتشكل بقدر ما تتشكل هوياتنا؛ إذ إننا، في كثير من الأحيان، نحوّل الحقيقة العلمية إلى موضوع للجدل، لا لأننا نختلف أو نتفق وفق مستوياتنا المعرفية والعلمية، بقدر ما نفعل ذلك وفق انتماءاتنا الفكرية والسياسية. ومنا من يقع في حيرة قبول رأي الآخر، وكأنه يقف أمام احتمال التخلي عن هويته، أو نقض ولائه، وما ينتمي إليه من معتقدات وقيم وثوابت ومسلّمات.

ولا يقتصر تأثير الهوية على القضايا العامة، بل يمتد ليطول تفاصيل حياتنا اليومية، وخصوصًا عندما يلتقي الهوى بالهوية، فيكون الهوى، في هذا السياق، القوة الأكثر خفاءً وتأثيرًا في رحلة إثبات الذات، في ظل الحاجة إلى الشعور بالتفوق أو الأمان، وهنا يصبح تغيير الرأي أو تعديل اتجاهه أمرًا بالغ الصعوبة؛ لأن منا من يشعر، من دون وعي، بأن تعديل موقفه يعني خسارة جزء من ذاته، وليس مجرد فكرة يمكن مراجعتها.

وتضاعف وسائل التواصل الاجتماعي هذا الأثر بما تقدمه للمستخدم من محتوى يوافق اهتماماته ومعتقداته، وخصوصاً عندما يسمع الأصوات التي تشبه صوته، ويقرأ الآراء التي تؤكد قناعاته، فيزداد يقينًا بأنه يمتلك الحقيقة الكاملة، بينما تتضاءل لديه فرص الحوار مع المختلفين عنه.

ومع ذلك، لا ينبغي النظر إلى الهوية باعتبارها عائقًا مطلقًا؛ فالهوية تمنح الإنسان الشعور بالانتماء والاستقرار والمعنى، لكن الخطر يبدأ عندما تتحول من إطار للتعريف بالنفس إلى قيد يمنع مراجعة الأفكار أو الاعتراف بالأدلة العلمية، فيتحول التحدي الحقيقي في عصر المعرفة من الوصول إلى المعلومات، إلى امتلاك الشجاعة الفكرية التي تسمح بمراجعة القناعات وتعديلها عندما تظهر أدلة علمية أقوى.

ولعل ما نحتاج إليه اليوم أكثر من أي وقت مضى ليس مزيدًا من المعلومات فحسب، بل مزيدًا من التفكير الناقد الذي يعلّمنا مساءلة أفكارنا قبل مساءلة أفكار الآخرين، والتواضع الفكري الذي يدفعنا إلى الاعتراف بأننا قد نخطئ، وأن الحقيقة لا يحتكرها فرد أو جماعة. كما أن تعمّد قراءة الرأي المخالف، والإنصات إليه بإنصاف، لا يعني التخلي عن القناعات، بل اختبارها وصقلها. ومن يعتد أن يفتح نافذة على الأفكار التي تختلف عنه، يمنح نفسه فرصة للخروج من سجنه الفكري، ويقترب أكثر من الحقيقة التي تتسع للاختلاف، ولا تضيق به.

والسؤال: «هل نعرف الحقيقة فعلاً؟» إلى «هل نحن مستعدون لقبولها؟» إذا تعارضت مع أهوائنا وهوياتنا؟»، فبين الهوى والعلم، وبين الهوية والحقائق، تتشكل معظم قراراتنا ومسارات حياتنا، والنضج هنا ليس في التمسك بالانحياز، بل في التيقن من أن الحقيقة أوسع من حدود الانتماء.

○ صحفية بحرينية.